

## موقع إيران في تطورات المنطقة بعد تغير السياسة الأمريكية تجاهها

غازي دحمان

كاتب سوري - سورية

### مقدمة

يبدو أن مرحلة المهادنة والسياسات الضبابية التي اتبعتها الإدارات الأمريكية السابقة مع إيران وصلت إلى مرحلة النهاية حيث تقوم إدارة دونالد ترامب بتركيب سياسات جديدة في مواجهة طهران قوامها الصراع والعداء، ويعد هذا التطور متغيراً جديداً في الواقع الإقليمي لما يستدعيه من تغير في الاستراتيجية الأمريكية بالإضافة لما سيرتبه من تداعيات محتملة من المتوقع أن تمتد آثارها على مساحة واسعة من الإقليم.

وكانت إيران قد استفادت على مدار عقود سابقة من السياسات الأمريكية في المنطقة، والتي تميّزت بالفوضى والخطأ في الحساب والتقدير، وتمدّدت في مناطق التوتر والصراع العربي عبر تثويرها العامل الطائفي، في العراق وسورية واليمن، وتعاطت إيران مع هذه البلدان بوصفها المدى الحيوي لها، وكان من نتيجة هذه التدخلات زعزعة الاستقرار إلى أبعد مدى وتدمير النسيج الوطني.

وكان أخطر ما صنعه إيران تأسيس تشكيلات عسكرية خارجة عن سلطة الدولة وترتبط ارتباطاً مباشراً بمصالحها وأهدافها وتنفذ سياساتها على حساب أمن ومصالح بلدانها الأساسية، وهو ما سيشكل دينامية لتشغيل صراعات مديدة في المنطقة ستكلف أبنائها طاقات كبيرة قبل أن تطوي صفحاتها.

بموازاة ذلك، اتبعت الإدارات الأمريكية، وخاصة إدارات جورج بوش الابن وباراك أوباما، سياسات غامضة، اختلط فيها الانتهازي بالانتقامي، من خلال تصورات قائمة

على إنهاك الأصوليات الإسلامية "السنية - والشيعية" بصراعاتها، واضطرار دول المنطقة إلى اللجوء لأمريكا دون شروط بما يؤدي إلى تقوية أوراق التفاوض الأمريكية، فضلاً عن تأمين مصالح إسرائيل التي ستصبح أكثر قوة نتيجة ضعف أعدائها وتشتتهم، وقد شكّلت هذه السياسات البيئة المناسبة لصناعة النفوذ الإيراني وتمدّده على وقع انهيار الدولة والمجتمع العربيين على طول سكة المشروع الإيراني.

### **جيو استراتيجيا ولوجستيا المشروع الإيراني**

لم يقتصر المشروع الإيراني في المنطقة العربية على البعد الأيديولوجي القائم على ما يسمى "تصدير الثورة لدول الجوار"، كما لم تكن بدعة الممانعة ومقاومة الغرب والصهيونية أكثر من أغطية شفافة لإخفاء البعد الجيوسياسي في المشروع الإيراني وتكتيكاته وتفصيلاته اللوجستية، ذلك أن إيران لا تشكل نموذجاً قابلاً للتصدير ولا تمتلك الثقافة ونمط العيش الإيراني أي مميزات تجعله يحمل جاذبية خاصة لدى شعوب الجوار، حتى شعارات المقاومة التي حاولت إيران أن تجعلها سلعتها الأكثر فعالية لاختراق الشعوب العربية وإرباك الأنظمة السياسية في المنطقة سقطت بفعل تناقض سلوك إيران وتضارب سياساتها تجاه الثورات العربية وخاصة في سورية واليمن.

وبانكشاف تهاافت الأيديولوجيا والشعاراتية الإيرانية، بدأت تتضح حقيقة مشروعها الجيوسياسي وأبعاده في المنطقة، وكانت إيران قد بنت الجزء الكبير منه تحت ستار غبار المقاومة والممانعة، وقد أمنت قواعد ارتكاز هذا المشروع من خلال تنصيب سلطة موالية لها في العراق، وتثبيت حزب الله في لبنان، وتدعيم سيطرتها على نظام الحكم في سورية، وإلى حين كان المشروع الإيراني يتخذ الأدوات الناعمة نسبياً في الانتشار والسيطرة، عبر تقديم المساعدات والخدمات لأطراف تحالفه مقابل أن يكون الشريك الأساس في صنع السياسة وتحديد توجهات الحلفاء في بغداد ودمشق والضاحية الجنوبية.

غير أن تفجّر الثورة السورية دفع إيران إلى تغيير نمط إدارتها الإقليمية نتيجة إدراكها وجود مخاطر من شأنها التأثير في انسيابية مشروعها وصيرورته، وذلك دفعها

إلى الإعلان بشكل صريح عن سيطرتها على "العواصم الأربع" وتكليف الحرس الثوري وقائده قاسم سليمانى بالإشراف المباشر على إدارة المشروع واتخاذ ما يلزم من إجراءات وترتيبات لحماية هذا المشروع، وفي هذا السياق ارتكبت إيران أشكالا وصنوفاً عديدة من الجرائم "التهجير الديمغرافي، والإبادة الطائفية" في العراق وسورية بهدف تثبيت مشروعها الجيوسياسي.

تعاطت إيران مع المتغيرات الحاصلة في المنطقة بوصفها أوضاعاً أبدية ونهائية، انعكاساً لقناعتها بأن الشرق الأوسط لم يعد مهماً بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية التي أعلن رئيسها السابق باراك أوباما أن استراتيجية بلاده تميل إلى التركيز على شرق آسيا، كما أن تقديرات إيران انبنت على أساس أن النظام الإقليمي العربي انتهى إلى غير رجعة، وأن تركيا لن تجرؤ على مواجهة الأطماع الإيرانية في المنطقة، وقد رفع الحضور الروسي من سقف الطموحات الإيرانية وخاصة وأن روسيا استعانت بالقوى التي تشرف عليها وتديرها إيران في مواجهة الفصائل السورية.

بناء على ما سبق، وفي سبيل التثبيت النهائي للمشروع الإيراني في المنطقة، صممت إيران خريطة لدمج الإقليم "العراق وسورية ولبنان" وربطه بالمركز الإيراني جغرافياً لتسهيل عمليات انتقال الأسلحة والمليشيات ولضمان وصولها إلى شواطئ البحر المتوسط في سورية ولبنان وذلك عبر طريقين بريين:

الطريق الشمالي: من إيران عبر محافظة ديالى باتجاه محافظة كركوك ومنطقة الشرفاء وصولاً إلى سورية عبر منطقتي تلعفر وجبال سنجار، وفي سورية يمر الطريق عبر مناطق سيطرة الأكراد المتصلة مع مناطق سيطرة النظام السوري، وتشكل حلب نقطة مفصلية في هذا الطريق.

الطريق الجنوبي: عبر محافظات العراق الجنوبية "البصرة، المثنى، النجف" ويخترق كامل محافظة الأنبار السنية، دون الاضطرار بالمرور بمدنها الكبرى "الفالوجة، حديثة، الرمادي، القائم"، إلى البادية السورية وصولاً إلى دمشق والانتقال عبر منطقة

القلمون السورية إلى الداخل اللبناني، وكذلك الوصول إلى الجولان وحدود الأردن عبر أرياف دمشق الغربية والجنوبية.

ويلاحظ أن إيران قامت بإجراءات تأمينية لهذه الطرق اشتملت على:

- التهجير الطائفي على طول مسار الطريق الشمالي من ديالي التي كانت في السابق ذات غالبية سنية وصولاً إلى تلعفر، ثم أرياف الحسكة والرقعة التي تولت الميليشيا الكردية التابعة لحزب العمال الكردستاني تطهير السكان العرب فيها.
  - إنهاء العشائر العربية في الفلوجة والأنباري وتدمير قدرتها على المقاومة.
  - رشوة الأحزاب الكردية في هذه المناطق عبر تقديم الدعم المالي لها، وخاصة وأن هذه الأحزاب على عداوة مع تركيا.
  - تأسيس بنية قتالية لحماية هذه الممرات وتثبيت مشروع السيطرة الإيراني، ووفق تقديرات حديثة يبلغ قوام هذه القوة بحدود 200 ألف مقاتل تتكون من ميليشيات الحشد الشعبي في العراق وميليشيات من الأفغان والباكستانيين اللاجئين في إيران، بالإضافة إلى حزب الله اللبناني وعشرات الفصائل في سورية.
- تطرح هذه الخلفية تساؤلاً مهماً حول الموقف الأمريكي الغائب أمام هذا العبث الذي صنعه إيران في مسرح الحدث الشرق أوسطي، وخاصة وأن جزءاً كبيراً من خريطة المشروع الإيراني قد جرى بناؤها تحت أعين الأمريكيين ومراقبتهم؟

## لماذا التحرك الأمريكي الآن ؟

منذ وصول الرئيس الأمريكي دونالد ترامب إلى البيت الأبيض، أعلنت إدارته العزم على الحد من النفوذ الإيراني في المنطقة ودفعه للانكفاء إلى الداخل الإيراني، وكانت الأسباب المعلنة وراء ذلك:

- اكتشاف الإدارة الأمريكية الترابط الهائل بين إيران والتنظيمات المتطرفة في المنطقة، إما من خلال الدعم المباشر "التنظيمات الشيعية"، أو من خلال الاختراقات

الاستخباراتية وردة الفعل "داعش والنصرة"، وهو ما يجعل المنطقة رهينة للتطرف على الدوام ما لم يتم تفكيك بنية التطرف فيها والتي تشكل إيران قناة التغذية الأهم لجميع تنظيماتها.

- تهديد المصالح الأمريكية في المنطقة وخاصة الممرات المائية في الخليج العربي والبحر الأحمر وباب المندب، حيث تعمّدت البحرية الإيرانية استقزاز الأسطول الأمريكي أكثر من مرّة.

- تهديد مصالح الحلفاء الأمريكيين، في منطقة الخليج من خلال محاولات إيران تعزيز استقرار وأمن هذه الدول.

غير أن ثمة أسباباً أكثر أهمية تقف وراء الموقف الأمريكي من إيران:

- إدراك أمريكا أن إيران أصبحت في موقع يتيح لها تطويق إسرائيل بين فكي كماشة من الجنوب اللبناني والجولان السوري، وأن هذه القوى التي تملكها ستتفرغ لمناوشة إسرائيل بعد أن تكمل مهمة إنجاز تهجير وتدمير السكان السنة في سورية والعراق، وطالما كانت أمريكا تنظر إلى استحالة تحقيق هذه الأهداف وأن إيران سوف تستنزف دون تحقيقها، غير أن سياسات الأرض المحروقة التي اتبعتها روسيا في سورية بالإضافة إلى السياسات المتوحّشة التي اتبعتها إيران ونظام الأسد، حيث لم يوفروا أسلحة، من الاستخدام المنظم والممنهج للكيمياوي إلى الاعتداءات الجنسية، دون استخدامها، ما أدى إلى تدمير بنى هذه المجتمعات والحد من قدرتها على المقاومة.

- سيطرة إيران على العراق ومقدراته، وهو ما تعتبره أمريكا، في عهد ترامب، خصماً من مصالحها الدولية، وقد أشار ترامب أكثر من مرّة إلى حجم الخسائر الكبيرة التي تكبدتها أمريكا في العراق وحققها تالياً في الاستفادة مما استثمرته في حربها العراقية.

- محاولة لإضعاف الوجود الروسي في الشرق الأوسط ودفع روسيا إلى التفاوض تحت سقف ما تسمح به أمريكا، انطلاقاً من حقيقة أن أمريكا زعيمة العالم وبالتالي سيطرتها على كل التفاعلات الحاصلة في النظام الدولي ومنظوماته الفرعية، وتعتقد

إدارة ترامب أنه لولا الخدمات التي قدمتها إيران لروسيا لما كان بمقدور الأخيرة أن تتصلب في مواقفها السورية، وأن تحييد إيران أو دحرها من سورية سيدفع روسيا إلى عقلنة سياساتها، أو الوقوع في مستنقع الاستنزاف الذي أنقذتها منه إيران عبر توفير الأدوات العسكرية "مليشيات وجيوش" اللازمة لإنجاز المهمة الروسية في سورية.

### الاستراتيجية الأمريكية في مواجهة إيران

تعكف إدارة ترامب على صياغة استراتيجية شاملة للتعاطي مع الأوضاع في الشرق الأوسط، وتتطوي هذه الاستراتيجيات على جزئيات تتربط مع بعضها بهدف السيطرة على ديناميات الأزمة والتحكم بسياقاتها، وتشكل محاربة إيران، بالإضافة إلى التنظيمات الإرهابية "داعش والقاعدة"، الجسم الأساسي لهذه الاستراتيجية، وحتى اللحظة تم الكشف عن جزء كبير من آليات هذه الاستراتيجية وأدواتها التشغيلية:

أولاً: تفكيك الأذرع الإيرانية في المنطقة: ويشمل هذا الأمر طيفاً واسعاً من الإجراءات، بعضها ذو طبيعة اقتصادية يتضمن عقوبات تجارية ومصادرة أموال وأصول وحسابات بنكية تعود لهذه التنظيمات أو لأفراد يشتبه بأنهم داعمون لها، أو مؤسسات تشغيلية تدير مصالح وأموال هذه التنظيمات، ويشمل هذا الإجراء بالخصوص الحرس الثوري الإيراني وحزب الله.

ولا تقتصر الخطة الأمريكية على العقوبات الاقتصادية بل تتعداها إلى احتمالية ضرب واستهداف هذه التنظيمات في أماكن وجودها في سورية في مرحلة لاحقة. فالتصور الذي تتبناه إدارة ترامب يتضمن تعطيل النفوذ الإيراني في سوريا، بما يعني الحرس الثوري الإيراني وعشرات التنظيمات الموالية العاملة هناك، وطبعاً حزب الله.

ثانياً: قطع التواصل الجغرافي بين إيران وسورية ولبنان، وذلك من خلال قطع الممرات التي تقع بين سورية والعراق وإقامة حواجز في وجه هذه الممرات، فقد أنشأت الولايات المتحدة الأمريكية في شرق وشمال سورية قواعد عسكرية ومطارات، وأنزلت

العديد من قواتها العسكرية، بالإضافة إلى تدعيم فصائل المعارضة وتثبيت سيطرتها على تلك المناطق.

ويريد الأمريكيون قطع الجسر الجوي الذي يربط طهران بدمشق والذي ينقل الذخائر والسلاح وعناصر الميليشيات الإيرانية، وقد تولت إسرائيل هذه الجزئية عبر استهدافاتها المتكررة لمطار دمشق دولي.

ثالثاً: محاصرة النفوذ الإيراني في جنوب سورية، ومنع تمدده إلى الجولان المحتل والحدود الأردنية، وتشهد هذه الجبهة تحضيرات وحشود بهدف القضاء على تواجد تنظيم داعش، وإبعاد الميليشيات الإيرانية التي تتواجد بكثافة في هذه المنطقة، وخاصة حزب الله .

رابعاً: تشكيل تحالف من الدول العربية لمواجهة النفوذ الإيراني، وتشكّل زيارة الرئيس الأمريكي إلى السعودية ولقاؤه مع الزعماء العرب فرصة لإحياء التحالف العربي- الأمريكي في مواجهة التمدد الإيراني الذي بات يشكل أحد أكبر مصادر التهديد على النظام العربي.

التوقيت: اختارت الولايات المتحدة الأمريكية اللحظة التي تعتبرها مناسبة لتجسيم النفوذ الإيراني في المنطقة، وحسب التقديرات الأمريكية، فإن إيران التي غرقت وأنهكت في معمرة الصراعات الجارية في العراق وسورية، لن تكون قادرة على إبداء مقاومة كبيرة في مواجهة أمريكا، وخاصة وأن ميليشياتها قد أصبحت على درجة عالية من الإنهاك، فضلاً عن تراجع مواردها المالية والبشرية.

بالإضافة لذلك، باتت إيران في هذه اللحظة مطوّقة بأعداء كثر ما قد يسهم في تشتيت قواها وتراجعها أمام أي مواجهة مقبلة، فعدا عن خلافاتها مع دول الخليج العربي وتركيا، تتصاعد حدة التوتر بينها وبين باكستان على خلفية إجراءاتها القمعية بحق إقليم بلوشستان واتهامها لباكستان بالوقوف خلف التمرد القائم في الإقليم.

وعلى ضوء ذلك، تراهن أمريكا بحصول انقلاب في الشارع الإيراني احتجاجاً على ظروف القمع والحرمان التي يعاني منها الإيرانيون، في استعادة لأحداث طهران "الثورة الخضراء" التي وقعت عام 2009 وقمعتها السلطات الإيرانية بعد شهر من نشوبها.

## حدود التصعيد وخيارات إيران وأمريكا

تذهب الكثير من القراءات للتصعيد الأمريكي إلى حد التنبؤ بنشوب حرب بين أمريكا وإيران بشكل مباشر، وذلك انطلاقاً من تحليل سلوك الرئيس الأمريكي الذي يتصف بعدم القدرة على التنبؤ بسقف أفعاله، مع وجود عقلية إيرانية في دائرة القرار تحكمها اعتبارات ميتافيزيقية وتتعاظم مع قضايا الحرب والسلام من منظور غير واقعي.

ويتواكب ذلك مع اعتبارات موضوعية تتعلق بكل من ترامب ونظام الملالي حيث يعاني الطرفان من أزمات داخلية مركبة تدفعهما إلى البحث عن مخارج لتلك الأزمات، ولعله من كلاسيكيات السياسة أن الأزمات الخارجية غالباً ما تشكل مخارج مضمونة لأزمات الداخل، فيتم تأجيل أو حتى نسيان ما هو داخلي وتتركز الأولويات الوطنية على مواجهة الخطر الخارجي.

غير أن الوقائع لا تشي بمثل هذه التحولات، وخاصة وأن الطرفين لديهما خيارات وبدائل يمكن المناورة من خلالها، وبالتالي فإن ثمة أشكالاً من الصراع بينهما قد لا تتضمن التصادم المباشر، على الأقل في الزمنين القريب والمتوسط:

### بالنسبة لإيران.

ورغم الخطاب الثوري ضد الاستكبار العالمي ومقاومة الغرب، إلا أن نظام الملالي يعرف جيداً حدود وقدرات أدواته العسكرية بالقياس إلى صراع بحجم الصراع مع أمريكا، وقد اختبر أدواته في أكثر من موقعة على مدار السنوات الماضية، في سورية والعراق، واكتشف مفاصل عطلها ومشاكلها التقنية، ورغم تقدم تقنيات الحروب وأساليب وتكتيكات خوض المعارك، لا تزال إيران عند حدود خبرة الحرب مع العراق التي استخدمت فيها



أسلوب السلاسل البشرية الكثيفة لإرهاق الخصم، وقد نجح هذا الأسلوب في سورية، ولكن بعد دمج قوة سلاح الطيران الروسي الفاعلة، في حين لم يكن كذلك قبل الدعم الروسي، كما أنه لم يحقق نتيجة واضحة في العراق بدون الدعم الأمريكي في الموصل والأنبار.

على ذلك، يمكن تحديد ملامح الخيارات الإيرانية في أي مواجهة مقبلة مع أمريكا على الشكل التالي:

الغالب، أن إيران ستتبع سياسة امتصاص واحتواء الهجوم الأمريكي إلى أبعد حد، انطلاقاً من قناعتها بأنها حققت تقدماً استراتيجياً في المنطقة وتحولت إلى قوة إقليمية، وأن سيطرتها العسكرية الناجزة تحتاج ترتيبات وإجراءات بسيطة ومع اكتمالها يصبح أي صراع معها نوعاً من العبث لأنه لن يغيّر كثيراً من الوقائع المترسّخة على الأرض، ولأن الصراع معها يصبح صراعاً مكلفاً وبدون جدوى ممكنة، والأفضل للأطراف الأخرى الاتجاه إلى التفاوض معها على مبدأ تقليل الخسائر وليس تحقيق النصر.

تتطلب هذه الحالة، سيطرة ميليشياتها على كامل الحدود الجغرافية لسورية، من جهة الأردن والجزولان المحتل وتركيا والعراق، حينها تكون منظومة الصواريخ الإيرانية على بعد كيلو مترات من المراكز الحساسة لدول الإقليم وعواصمها، وتتطلب أيضاً استكمال تجهيز البنى التحتية اللازمة، ميناء في اللاذقية، مطار في البادية السورية، نصب قواعد صواريخ على الحدود مع الأردن وتركيا، وتطوير إسرائيل عبر جبهتي الجزولان وجنوب لبنان، لكن السؤال هل تستطيع إيران إجراء هذه المناورة الواسعة بعد أن باتت تحت المجهر وفي دائرة نيران الخصوم؟.

الخيار الثاني: تحريك الجبهات بأسرع وقت وإشغال الخصوم ودفعهم إلى معارك تحدّد إيران زمانها ومكانها، والجبهات المحتملة، جبهة جنوب لبنان وإشغال الحرب مع إسرائيل، وجبهة غرب العراق وإشغال الحرب مع القوات الأمريكية المتواجدة في الموصل والحسكة، ومع أن هذا الخيار هو الأكثر ترجيحاً، إلا أنه ينطوي على مغامرة خطيرة

تتمثل باحتمالية تدمير الأذرع الإيرانية بشكل نهائي في ظل حالة من التوحد الإقليمي والدولي وجراء العزلة التي تعيشها إيران في الوقت الحالي.

الخيار الثالث: انسحاب إيران بهدوء ودون الاضطرار إلى خوض معارك قاسية ومعروفة نتائجها مسبقاً والاكتفاء بوجود وكلائها في مواقع حساسة في السلطة في العراق وسورية ولبنان، والتفاوض على تثبيت مكاسبهم ومواقعهم، ومع أن هذا خيار مناسب، إلا أن إيران تخشى من تداعياته الداخلية والخارجية، حيث سيتم تصوير تراجعها بمثابة هزيمة ما قد يفتح الباب أمام تجرؤ الداخل الإيراني على مزيد من التنازلات ويفتح كشف حساب سلطة المالكي وما أهدرته من ثروات طائلة لإدارة الحروب في سورية والعراق والمآل الذي وصلت له، بالإضافة لذلك فإن إيران التي اعتادت على الإشراف المباشر على مسرح الأحداث يصعب عليها تفكيك هذه الوضعية وإعادة بناء مراكز قرار وإدارة مستقلة لدى وكلائها وهي تحت النار.

## خيارات الولايات المتحدة الأمريكية

بالنظر لاختلاف المواقع وموازين القوة، تملك الولايات المتحدة طيفاً واسعاً من الخيارات ودرجة عالية من الحرية في استخدامها، والأرجح أن تعتمد الإدارة الأمريكية إلى توسيع نطاق الخلفات مع إيران ليشمل ملفات النووي والصواريخ الباليستية ودعمها للجماعات الإرهابية وتدخلها في شؤون دول الجوار وسواها من متفرعات هذه الملفات، وذلك لفرض خيارات ضيقة أمام طهران ودفعها للتنازل إلى أبعد الحدود، وتمتلك إدارة الرئيس دونالد ترامب بالإضافة لسعة الخيارات، تفويضاً شعبياً لمعاقبة إيران، وقد أثبتت ضربة مطار الشعيرات وجود تأييد لتدخل أمريكي في الشرق الأوسط، بعكس ما كان الحال عليه في فترة الرئيس باراك أوباما وأواخر حكم الرئيس جورج بوش الابن، حيث كان الرأي العام الأمريكي ميالاً للانكفاء عن الشرق الأوسط ومشكلاته، وربما يعود السبب في ذلك إلى الدعاية الإعلامية الناجحة التي تبنتها إدارة ترامب من خلال ربطها للتصدي لإيران باستعادة الهيبة الأمريكية على المستوى العالمي.

## خاتمة

لقد ساهمت إيران بهدم الشرق الأوسط القديم، وربما كانت هي أكثر الأدوات الفاعلة في هذا المضمار، غير أنه من غير المقدر أن تكون أحد بناة الشرق الأوسط الجديد، ورغم العبث الهائل الذي مارسته على جغرافية وديمغرافية المنطقة، فإن ضعف وتخلف بناها وتقنياتها لا يؤهلها للقيام بأكثر من تلك الأدوار التي يرسمها الآخرون لها أو التي يسمحون لها بممارستها، وإذا كانت روسيا قد أنجزت تموضعها في الجغرافية السورية وفي سلم القوّة الدولي، فإن أمريكا عادت لترميم قواعدها وخطوط مواصلاتها واتصالاتها في المنطقة، بما يعني إغلاق الباب أمام الدور الإيراني ونهاية زمن السماح.